التمريض في الخطوط الأمامية:
حماة الروح والصحة في الأزمات والسلم

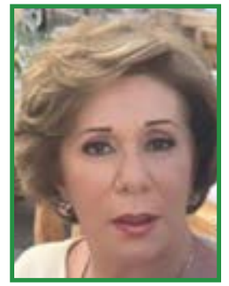

نجوى فندي الشعار
رئيسة ادارة التمريض والجودة
في مستشفى ومركز بلفو الطبي

في قلب كل منظومة صحية، ينبض صوت إنساني لا يهدأ، يتمثّل في الممرضين والممرضات. هؤلاء الذين يشكّلون العمود الفقري للرعاية الصحية، ليس فقط في المستشفيات والمراكز الطبية، بل في كل زاوية من زوايا الحياة، سواء كانوا يعملون في صخب الطوارئ أو في عزلة العيادات الريفية، يبقون السند الثابت، واليد الدافئة، والقلب النابض والكفاءة والمهارة المبنية على المعرفة.

في أوقات السلم، يؤدّي التمريض دورًا جوهريًا في تعزيز الصحة والوقاية من الأمراض. أما في الأزمات، فتتجلّى شجاعتهم، ويصبحون حماة الحياة عندما تنهار الأنظمة. من الحروب والكوارث الطبيعية إلى الأوبئة والجوائح، يكون الممرض أول من يصل وآخر من يغادر، حاملاً على عاتقه مسؤولية إنقاذ الأرواح، وتهدئة القلوب، واستعادة الأمل.

من أشد المهام تعقيدًا وإنسانية في أوقات الكوارث هي مهمة «الفرز» (Triage)، وهي كلمة فرنسية الأصل تعني «الاختيار أو التصنيف». في خضم الفوضى، يتخذ الممرضون قرارات مصيرية: من يستدعي إنقاذًا فوريًا؟ من يمكنه الإنتظار؟ ومن قد تكون فرص نجاته ضئيلة؟
وراء كل قرار من هذه القرارات يقف مزيج من العلم الدقيق، والتفكير الأخلاقي العميق، ورحمة لا تعرف الحدود.. لا يقتصر الدور على تقديم الرعاية السريرية، بل يتعداه ليشمل القيادة وتنظيم مناطق الطوارئ، والتنسيق مع الأطباء والأداريين و فرق الإنقاذ، وتقديم الدعم النفسي للمرضى وأسرهم، والمساهمة في إدارة الجوانب اللوجستية المعقدة. هم لا يقدّمون العلاج فقط، بل يجسّدون معنى الأمان في لحظات الخوف، والثبات في قلب الاضطراب.

عبر التاريخ، يتكرر مشهد البطولة في صفوف التمريض، من فلورنس نايتنغيل التي غيّرت مجرى التمريض خلال حرب القرم، إلى الممرضين الذين وقفوا في الخطوط الأمامية لمواجهة جائحة كوفيد-١٩، لم يكن دورهم يومًا ثانويًا، بل محوريًا وحاسمًا في بقاء الأرواح والنظم الصحية على حد سواء. إنهم من حافظوا على النبض حين خفت كل شيء. أنهم الأبطال المجهولون الذين ابقوا انظمة الرعاية الصحية قائمة خلال احلك اللحظات. وحين غاب الجميع كانوا هم موجودون.

تعدد الأدوار

مع تغيّر مشهد الصحة العالمي نتيجة لشيخوخة السكان، وارتفاع معدلات الأمراض المزمنة، وتوسّع الفجوات الصحيّة، لم يعد التمريض محصورًا بين جدران المستشفيات. لقد أصبح الممرضون اليوم مثقفّين صحيين، ومدافعين عن حقوق المرضى، ومنسقيّن للرعاية، وباحثين، وشركاء في صناعة السياسات الصحية. إنهم في قلب الحوار حول العدالة الصحية، والإصلاحات المستقبلية.

في وجه الأمراض المزمنة، يقف الممرضون في الصف الأول. هم من يقودون حملات التوعية، ومبادرات الكشف المبكر، ويوّفرون الإرشاد حول أسلوب الحياة، ويتابعون التزام المرضى بالعلاج، ويزرعون فيهم روح المسؤولية الصحية. وفي المدارس، والمجتمعات الريفية تجدهم يسهمون في مجال التطعيم ، والتثقيف الصحي الأجابي، والوقاية من المخدرات، والتوعية بالصحة النفسية.

يُعدّ الممرضون في صحة المجتمع، ومرضو المدارس، وأصحاب المهارات التخصصية، عناصر بالغة الأهمية، لا سيما في **المجتمعات المحرومة والريفية** حيث يكون الوصول إلى الرعاية الصحية محدوداً. من خلال دورهم المحوري في الرعاية الأولية، يسهمون في **تسهيل الوصول إلى الخدمات، وتعزيز العدالة الصحية، وترسيخ الثقة** بين النظام الصحي والمجتمع.
في العصر الرقمي، برع الممرضون في استخدام التكنولوجيا من السجلات الصحية الإلكترونية، إلى الاستشارات عن بُعد، إلى أجهزة المتابعة الذكية. لقد أصبحوا في طليعة الرعاية الرقمية، يستخدمون أدوات العصر لدعم القرار الإكلينيكي، وتحقيق الاستمرارية، ومساعدة المرضى في كل مكان.

تعدد التخصّصات

بفعل تعقيد نظام الرعاية الصحية وتطوره المتسارع، تنوّعت مجالات التخصص في مهنة التمريض، وامتدت من البرامج الجامعية الأساسية إلى درجات الماجستير و الدراسات العليا - الدكتوراه. هذا التنوع أدّى إلى توّسع ملحوظ في نطاق الأدوار التمريضية، لتشمل تخصّصات دقيقة مثل: الممرضين المتقدمين (APRN)، الممرضين الممارسين، المتخصصين السريريين، ممرضي الرعاية التلطيفية، التمريض النفسي، التخدير، تمريض الأورام، التأهب والاستجابة للكوارث، المعلوماتية الصحية وغيرها...

أما مرّبو التمريض، فيضطلعون بمسؤولية إعداد الجيل القادم من الممارسين، مع التركيز على غرس قيم الرعاية الفعالة المبنية على التعاطف الإنساني مع الألتزام الحقيقي بأن تكون رؤى واحتياجات المرضى جزءًا لا يتجزأ من عملية اتخاذ القرار.

إن هذه التخصصات التمريضية ليست مجرد مسارات وظيفية، بل استجابة متقدمة لاحتياجات مجتمع يتغير بوتيرة متسارعة، ويبحث عن رعاية أكثر تخصّصًا ودقة وتواصل وإنسانية. إنها التزام بتقديم رعاية لا تقتصر على الكفاءة فحسب، بل تمتاز أيضًا بالتأثير العميق والطابع الإنساني الرفيع.

فالممرضون شركاء فاعلون وصانعو سياسات، يساهمون بخبراتهم الميدانية ورؤيتهم الإنسانية في توجيه القرارات نحو ما يخدم صحة الأفراد والمجتمعات. يشاركون في الأبحاث، ويقودون تحسين الجودة، ويقدّمون رؤى نابعة من قربهم الحقيقي من المرضى. في المستشفيات، الجامعات، الوزارات، والمراكز البحثية، يمتلك قادة التمريض تأثيرًا يمتد إلى كل مستويات النظام الصحي.

شركاء في الرعاية

في هذا الإطار، يتقدم قادة التمريض بدور ريادي في إعادة رسم ملامح الرعاية الصحية وصياغة السياسات العامة على مختلف المستويات. لا يقتصر عملهم على القيام بالمهام الإدارية، بل يشاركون بفعالية كصناع قرار، باحثين متخصصين، ومساهمين في التعليم الأكاديمي مما ينعكس مباشرة على تحسين الكفاءة، وتعزيز الجودة، واستدامة خدمات الرعاية الصحية.

التمريض مهنة ترتكز على تعزيز الصحة، والوقاية من الأمراض، وتمكين المرضى، والرعاية المنسقة، بفضل هذه المبادئ الأساسية، تمثل المهنة قوة محورية في تحويل الرعاية الصحية إلى نظام شامل استباقي، ومتمرّكز حول المريض. ولتحقيق أقصى استفادة من هذه القوة البشرية، لا بد من الإستثمار الجاد في تعليم التمريض، وتمكين وتأهيل القيادات التمريضية، وتوسيع صلاحيات الممارسة المهنية، ودمج التمريض في كل مستويات التخطيط الصحي.

لم يكن التمريض في يومٍ من الأيام مجرد مهنة، بل هو رسالة إنسانية عميقة الجذور تجمع بين دقة العلم ودفء الرحمة، وبين وضوح الرؤية وواقعية الميدان، وبين الرقة والصلابة ليكونوا بحق القلب النابض ورواد التغيير في مسيرة الرعاية الصحية في العالم.